تنويعات على لحن الحب

قصة بقلم الدكتور نعيم عطيّة

رفعت الست حميدة بصرها عن ابرتها ، وسالت زوجها :

ـ الساعة تطلع كام ، يا ابو صابر ؟

لم تتلق اجابة . كان جالسا في استرخاء مهدما . تأملته حميدة بنظرة مشفقة . جسمه ازداد هزالا في الآونة الاخيرة . يداه المعروقتان متشبثتان بالكرسي . نظراته الى بعيد ، مثبتة على لا شيء .

هزت حميدة راسها ، وتنهدت بصوت عال متحسرة .

اجفل امين افندي ، وخرج من شروده :

ـ هيه ؟! .. بتكلميني ؟!

كان يفكر في ليلة أمس . كانت من اصعب لياليه . مضى يفكر في الكابوس الذي يحلم به . حلم يتكرر هذه الآونة الاخيرة ويلح عليه كل ليلة .. ثمة كلب يطارده .. ويوشك ان يعضه .. يهرب منه .. يندس بين الناس هربا منه .. ينفضح امره .. يجد الكلب .. خلفه على وشك الانقضاض عليه واذا ما عقره .. صحا من نومه .. يلهث .. وقد تصبب العرق من جسده .. فاذا التفت الى حميدة وجدها تنظر اليه ، كما لو كانت تتابع حلمه وتنصت الى ما تتمتم به شفتاه .. ثمة ما يشغل باله الى حد مضن . ان شئت الحق لم يكن يفكر في الفلوس .. انها تعرف .. كان يفكر في .. صابر .

قالت حميدة :

ـ يا شيخ ما تنعاش همه . ده بخير الحمد لله .

قال انه بمجرد ان يجد عملا ويستريح سيكتب لهما .

غيرت حميدة مجرى الحديث :

ـ شوف انا فصلت لمجدي ايه ؟

رفعت بين يديها قميص طفل صغير . وبسطته فخورا به . بقى ان تعمل له السروال ايضا . سلم الله يديك يا حميدة . ليس للولد احد غيرك . تنهدت حميدة . فقط لو لم تكن امه قد ماتت ساعة ولادته ؟ هذا امر الله . البركة في جدته حميدة . والصغير يعتقد انها امه ، وينايها دائما : ماما حميدة .

ـ البركة فيك انت ، يا ابو صابر .. يتربى في عزك ..

ترددت حميدة ثم اردفت في عزم : وفي عز ابوه صابر .

تعالى من الشارع صخب وموسيقى بلدية .. نهضت حميدة في تثاقل وراحت الى الشباك تستطلع الامر .. موكب .. زماران .. وطبال ورجل يرقص بعصاه على جبينه في رشاقة منقطعة النظير .. وابن بلد ربع الجسم مفتول الشارب .. تتفجر وجنتاه حيوية وبشرا.. جلس يحيي الجمهور في عربة حنطور .. والى جواره صبي صغير لم يتعد التاسعة .. منزو الى جوار ابيه .. يلبس جلبابا ناصع البياض .. وصندلا .. وطربوشا .. عقبال عندكم .

قالت حميدة وهي لا تزال تنظر من شباك الصالة مولية امينا ظهرها .. المعلم عطوة الخباز بيظاهر ابنه النهارده ..

لم يبد على امين انه اهتم بالامر ..

اغلقت حميدة الشباك وعادت الى زوجها ..

كان لا زال غارقا في صمت .. اصابع يده اليسرى تنقر على مسند الكرسي .. عادت تغير الحديث محاولة ان تخرجه من عزلته : كنت باسالك الساعة كام دلوقتي .

نظر امين في ساعة جيبه . كانت العاشرة وخمس دقائق . ترى ما الذي جعل الطبيب يتاخر ؟ كانت حميدة قد طلبت من الست عزيزة جارتها وهي نازلة ان تمر عليه في العيادة لتقول له ان يجيء . دق جرس الباب . مضت حميدة اليه وفتحته . دخلت امراة في الخمسين تحمل سلة بها مشترياتها من السوق . سحبت الطرحة على راسها عندما لمحت امينا في الصالة .

دعتها حميدة الى الجلوس ، فهي ليست غريبة عن اهل البيت . مرت عزيزة على الدكتور محسن وتركت له خبرا مع الممرض حتى يأتي لزيارة زوج جارتها . لا بد انه قادم . انه طبيب ماهر . وغدا يشفيك ، ان شاء الله يا سي امين . منذ ان فتح عيادته في الحي .. منذ ثلاثة شهور ، والناس تشكر فيه .

التفتت الجارة الى حميدة وذكرتها بابن الست ام فهمي وبمرضه الذي طال . ابخذوه للدكتور محسن ، فلم يمض اسبوعان حتى شفي الولد .

تذكرت الست عزيزة شيئا . استدركت سائلة : الم يرسل صابر خطابات ؟ سارع امين يقول : هو بخير والحمد لله .. اصلحت الست عزيزة طرحتها السوداء على جبينها . اسم النبي حارسه . طول عمره نبيه وشاطر .. مرة منذ ثلاث سنوات . عندما كان تلميذا بالثانوية ، منعوه من المدرسة لانه اشترك في مظاهرة ضد عساكر الانجليز . وهل هذا سبب لمنعه من الدراسة ؟ واشترط عليه الناظر حتى يرجعه ان يحضر ولي امره ليضمنه ، فلم يرد ازعاج ابويه ، ورجاها ان تذهب معه الى الناظر .

ضحكت عزيزة : الله يصبحك بالخير ، يا صابر يا بن حميدة . مطرح ما تكون ..

كانت هذه اول مرة يسمع امين بهذه الحكاية . كان صابر رؤوفا بابويه . وما كان يحب ان يزعجهم باخبار مثل هذه .

دعت له عزيزة بطول البقاء .

سالت حميدة جارتها مجاملة عن حكمت وخطيبها .

ـ اسكتي .. قطيعة .. فكينا ..

اختلفوا على الجهاز . قال : يدفع مهرا ، ويعمل حجرتين . قالوا: يا للعار .. اختها دخلت باربع حجرات .. وبعد اخذ ورد .. قبل بسلامته ان يعمل ثلاثة . وبعد ذلك قالوا له والسجاجيد والتحف ؟ قال : لا استطيع ، قالوا يفتح الله علينا وعليك .

ـ امال ؟ هو احنا نرمي بناتنا ، يا ست حميدة ؟

خبطت عزيزة صدرها بيدها وقالت :

لم تجب . تعلقت انظارها بباقة الورد الصناعي في الاناء الفخاري الاحمر على المنضدة الصغيرة ذات الغطاء المخملي الازرق . كان الاثاث في الصالة عاديا ومألوفا .. متواضعا وفقيرا لكنه لا يخلو من ذوق واناقة واحساس بالرحابة والراحة .

نهضت الست عزيزة متأهبة للانصراف . في طريقها الى الباب وقفت امام صورة باسمة لشاب وسيم تتدفق الحيوية من وجهه . تأملتها هنيهة . كانت نتيجة الحائط المعلقة تحت الصورة تشير بوضوح الى يوم ٧ – ٢ – ١٩٥٢ . كلما رأت الجارة صورة صابر أحست ان ثمة خطأ في الامر . لا يمكن ان يكون على ما يرام . هذا الفتى تطوع في حرب تحرير فلسطين وكله ايمان وشجاعة ، فتنطلق من البندقية التي كان يضعها على صدره ويصوبها الى العدو رصاصة تصيبه في عينه؟

التفت امين اليها وقال في حماس : موش الاسلحة الفاسدة وبس .. انما التعابين اللي شايلينها اكلت ايدينا ، وفي بفنا ما في غير طعم الملح والصدأ .

انتابته نوبة من السعال . استلقى الى الخلف في مقعده مجهدا .

دخل الصغير مجدي مندفعا وممسكا ببندقية خشبية صغيرة . جرى نحو جده صائحا : جدي .. حانطردهم .. خلاص !

سألته حميدة بلهجة طيبة : هما مين يا بني اللي حانطردهم ؟

التفت اليها مجدي قائلا : الغربان اللي واقفة على البلكونة .

دار الصغير بضع دورات ثم هجم . اكتسح الأعداء في طريقه الى الباب ثم انطلق الى الخارج وهو يصرخ .

رفعت الست عزيزه يديها داعية له : ربنا يسمع منك ، يا ابني . هو بعدما الحرائق شعلت يبقى فاضل ايه .. خليتك بعافية يا حميدة يا اختي .

شيعت حميدة جارتها الى باب الشقة شاكرة .. ثم اغلقت وراءها الباب ، وهرعت الى جوار زوجها الذي بدا عليه التعب من نوبة السعال التي انتابته بسبب انفعاله في الكلام . ركعت امامه وحوطت ساقيه بذراعيها في حنان . زالت النوبة ، وهدأ الجسد المكدود .

ابتسم امين ابتسامة خائرة ، وربت على رأسها . لا حرمه الله منها . تنهد . عيناها تذكرانه بايام زمان .. ايام ان كانا مخطوبين . ذات النظرات المحبة العطوف التي كان يراها في عينيها المسلمين عندما كان يذهب لزيارتها في بيت ابيها . فاكرة يا حميدة ؟ هزت رأسها بمودة ، وقد استرجعت الماضي الحبيب . الشيء الوحيد الجميل في حياته انه كان يحبها في كل دقيقة .. صحيح انه لم يكن يعرف مثل بقية الشبان كيف يعبر لها عن حبه بكلام منمق ، ولكنه مستعد ان يقسم بالعيش والملح الذي اكلاه معا انه كان يحبها . انه لم يدخر وسعا ان يجعلها سعيدة في حياتها المتواضعة معه . ها هما الآن في اوائل عام ١٩٥٢ . وقد مضى على زواجهما ثمانية وعشرون عاما . ذات يوم في ربيع عام ١٩٢٤ تزوج المستخدم الصغير بابنة جاره عبد السميع افندي التي اختارها شريكة حياته .

مسحت حميدة دموعا طفرت من عينيها رغما عنها . حقا ، كانت معه اسعد زوجة في الدنيا . ثم ها هي سنوات العمر تولي . هو في الستين الآن ، وهي اصغر منه ببضع سنوات . ومع المشيب الذي وخط شعريهما ، وجلل رأسيهما بالبياض احست انه ليس لها في الدنيا غيره ، وانها بحاجة شديدة ان تتشبث به ، اما بالنسبة له فكانت هي عكازه الذي يتكيء عليه .

اخذ وجه زوجته بين يديه المرتعشتين . وخيم الصمت على العجوزين . ظلا في وضعهما ، لا يعرفان كم من الوقت ، برهة ام دهر ، مر عليهما .

دق جرس الباب . سارعت حميدة بالوقوف على قدميها ، اصلحت بعض الشيء من هندامها ، وتلفتت حولها بنظرة فاحصة . جذبت الغطاء الاحمر المزركش من احد اركانه قليلا حتى يستوي وضعه على المنضدة الكبيرة . واصلحت صحن الفاكهة الذي كان قد انحرف عن مكانه عند الوسط تماما . كل شيء في البيت يتسم بالبساطة والترتيب والنظافة . الوان زاهية في كل مكان . كانت على الدوام سيدة مجتهدة، فيها كثير من المرح والتفاؤل . ثم مضت الى باب الشقة وفتحته . دخل الطبيب يحمل حقيبته الجلدية الصغيرة .

اخذت منه حميدة الحقيبة ووضعتها على المنضدة الصغيرة تحت صورة ابنها صابر .

– سي امين يا دكتور تعبان شويه .

ذهب اليه الطبيب . تناول يده مصافحا .. لاطفه ثم سأله عم يشكو :

– صدري يا دكتور ، متهيأ لي زي ما يكون حد طابق على انفاسي.

لم يعد امين شابا صغيرا مثل زمان . وعلى الرغم من ذلك فهو يعمل اكثر من طاقته . شهرين وهو يعمل في المكتب صباحا وبعد الظهر عملا متواصلا . ويعود الى بيته كل ليلة الساعة العاشرة وقد انقطع نفسه ، مرهقا من عناء المكتب وزحام المواصلات ، وذلك لان احد زملائه في العمل راقد في بيته يعاني المرض وعنده اربعة عيال صغار . انه يشفق عليه ويخشى ان يفصل بعد ان نفدت اجازاته المرضية ، فتبرع بالعمل مكانه . مع انه لن ينفعه هو احد اذا رقد في السرير . فلا احد يسند وقت الشدة .

صاح امين بانفعال وحماس : لا بد من حمامة بيضة ، يا دكتور .. حمامة بيضة لها مخالب من حديد !

هدأ الدكتور محسن من روعه .

مضى امين مرتعش الشفتين : احنا الجيل القديم بنودع يا دكتور .. لكن انتم .. عاوده السعال فلم يستطع ان يكمل عبارته .

طلب منه الطبيب ان يكف عن مثل هذا الانفعال ولا ينسى انه مريض .

استأذنت حميدة وانسحبت الى المطبخ .

مضى الطبيب يفحص مريضه .. استخدم السماعة التي وضعها على صدره .. انحنى والصق اذنه على ظهره . ثم وقف في النهاية يتطلع اليه مفكرا .

لم يستطع امين ان يغالب قلقه .. كسر الصمت وسأل الطبيب عن اللغط الذي في قلبه . وهل هو ظاهرة خطيرة .

لم ير الطبيب ان ثمة اعراضا مرضية ، غير قليل من الهزال بطبيعة الحال . نظر الى امين متفحصا : لكن ثمة ما يثقل باله.. مسألة نفسية .. تسبب قلقه . شيء يكبته في اعماقه ، وينغمس في العمل كوسيلة للهرب والنسيان ، على الاخص .

– ايه اللي شاغل بالك للدرجة دي ، يا امين افندي ؟

عندما لم يتلق الدكتور محسن اجابة على سؤاله مضى الى المنضدة الصغيرة تحت صورة صابر ليضع السماعة في حقيبته . استلفته الشبه الشديد بين ذلك الشاب المتفجر بالحيوية والشيخ الهدم الجالس في مقعده يلهث . مضى يتطلع الى الصورة المطلة عليهما . عينان تنفذان الى لب الاشياء . متواضع مثل الانهار التي تصب في البحر ، واثق من نفسه مثل الطبيعة .. شفتاه تريدان ان تهمسا بشيء .. ما الذي جعل القلوب قد دفت فيها المسامير ؟!

فاجأ امين الدكتور قائلا : ممكن تديني حاجة تخليني انام نوم تقيل طول الليل ؟

سأله الطبيب اذا كان يعاني من الارق .

تطلع امين الى الباب الذي خرجت منه زوجته ليتأكد من انها لن تسمعه . منذ ان مرض وهو يصحو بالليل ليجد نفسه يتكلم احيانا وهو نائم . كان يخاف ان يفلت لسانه رغما عنه في حلمه ، كأنه يخفي امرا لا يريد ان تعرفه حميدة .

دخلت الزوجة . مضت الى امين تساعده على ارتداء قميصه واقفال أزراره . لاحظت اهتمام الطبيب بصورة ابنها .

– ابننا الوحيد ، يا دكتور .. منتظرين عودته .

استدار الطبيب اليها : ست عزيزة قالت لي انه مسافر .

طلب امين من زوجته ان تذهب لتجهز له سريره . كان يحاول ان يبعدها عن الصالة .. تعلل بان الرفاد افضل له .. حتى يخلو له الجو مع الدكتور ليقول له امرا دون ان تسمعه . استنجد بالطبيب في ذلك فصدق على كلامه .

كانت تريد حميدة ان تبقى . ثم ترددها عند الباب عن ذلك ، لكنها امتثلت ، وخرجت .

اقترب الطبيب من امين ، ونصحه الا يكتم مشاغله في قلبه . تكلم امين بسرعة كمن يخشى اللحاق به . الح بلهجة مستعطفة ان يكتب له الطبيب دواء منوما .

امسك الدكتور محسن به من ذراعه ، ونظر اليه نظرة ثابتة : هل يخفي سرا ؟ عن حميدة مثلا ؟ تفرس فيه الطبيب مستفسرا ، وهو يحاول ان يبدأ الكلام مرتين او ثلاثا دون جدوى . كان لا يعرف كيف يبدأ قصته ، كمن يخشى رقابة على شكواه . قاده الطبيب برفق الى مقعده ثم قرب منه مقعده . جلسا متقاربين .

مضى الطبيب ينابع شفتي مريضه باهتمام . يجب ان يكون معروفا ان كل ما يقال له يظل سرا لا يعرفه احد . اخذت الطمأنينة تسري الى قلب امين . كانت نظرات الدكتور محسن مرفأ أمـــان ، ووعوده فشة نشبث بها العجوز المتلهف الى ان يزيح ثقلا جاثما على صدره . الجميع يمتدحون الدكتور محسن والكتمان من ادبيات المهنة .

نهض امين خائرا . مضى الى الباب ، واطل منـــه . وقف يصغي هنيهة ثم اقفل الباب بعناية وعاد الى مقعده مجهدا مطمئنا الى ان احدا لن يسمع حديثه . خيم الصمت برهة . تطلع امين الى الصورة المعلقة على الحائط . أومأ للدكتور محسن :

ـ سمعت مراتي قالت ايه لما شافتك بتبص للصورة ؟

ـ ايوه .. منتظرين عودته بالسلامة .

أردف امين بصوت ينضح بالحزن : صابر موش راجع لنا تاني !

تهدم صوته : ابننا الوحيد مات ، يا دكتور .

مات ! فوجيء الطبيب بالنبأ . اراد ان يقول شيئا فيه تعزية لكن لسانه الجم . رفع بصره ، ومضى يتطلع الى الصورة . كان صوت الاب يأتي من بعيد : « ابني كان واثق من نفسه وامله كبير فـي الانسان .. كان دايما يحب يحلم ويقول شجاعتي من اجل العدالة .. ولما تطـوع في حرب فلسطين من اربع سنين كان رايح بايمان وقلب راضي . كان بيودعنا وهو يبتسم . مسافر يؤدي فرض عزيز عليه يخلى عن ذاته وعن العالم كله من اجل حلمه » . تنهد امين ثم اردف يقول : « رجع مـن الحرب متغير ويقول المعارك الاولى يجب ننم هنا .. في القلب اولا .. ماكانش متهور .. لكنه ماكانش يهتم كتير بالنجاة من الاخطار . كـان بيقول لازم نقهر الموت بالصمود .. لازم ننتصر علـى الالم بالزهـد والكبرياء » .

سكت الاب قليلا . اطال الدكتور محسن نظراته فـي قسماتـه المجعدة . كان صابر ابنه الوحيد ولذلك فهو ليس بقادر ان يخبر امه التي لا زالت تعتقد ان ابنها سيعود اليها . امتزج صوت العجوز برنة ألم مهول . انه غير قادر ان يقول لها ان ابنها الوحيد مـات ، ولـن تراه قط . القى بوجهه بين كفيه ، واجهش ببكاء خافت مكبوت ، محاولا في الوقت ذاته التغلب على لحظة ضعفه .

ـ افكر فهمت يا دكتور ليه انا باخاف حتى من النوم .. خايف تفلت كلمة من لساني غصب عني .. تعرف منها حميدة ان ...

انهار صوته وخفت .

خيم الصمت . جلس امين منكفئا الى الامام ، وقد اسند وجهـه الى يديه مطرقا .

نهض الدكتور محسن ، واخذ يمشي في الصالة جيئة وذهابـا مطرقا مستغرقا في التفكير ، السجادة على الارض مصنوعة من خـرق مزركشة ، رسم عليها من مشاهد ابي زيد الهلالي منظر معركة ، وسيوف تتقارع ، ورجال بشوارب ضخمة وعيون سوداء واسعة ، واعداء سقطوا تحت سنابك الخيل التي تبدو مثل اسود كشرت عن انيابها . اقترب محسن من الاب وربت على كتفه مواسيا . لم يكن يعرف ماذا يقول له . ليس للكلام العادي من جدوى في ظروف مثل هذه . هل يقول لـه ان ابنه مات بطلا ، وان الابطال لا يموتون ؟!

دفعت حميدة باب الصالة برفق ، ودخلت بخطوات نشطة . اعتدل امين في جلسته بسرعة عندما رآها . طرد عنـــه همومه ، وحاول ان يبتسم .

قالت الست حميدة مداعبة : الدكتور عنده عيانين غيـرك لازم يروح يشوفهم ، يا سي امين . كفاية رغي بقى .

التفتت الى الدكتور محسن ، وقد علت وجهها مسحة من البهجة المفتعلة ، اما في اعماق عينيها فمكمن بارقة من الاسى الدفين الـذي لا يبدو للنظرة السطحية .

نصح الطبيب سي امين ان يدخل لينام في سريره ، وطلب مـن الست حميدة ان تأخذ منه بعض التعليمات بخصوص العناية بزوجها . والتفت اليه مجاملا :

ـ وان كان مافيش شك في انها موش مقصرة ابدا .

نهض امين . اسرعت حميدة الى مساندته . وقبل ان يغادر الغرفة التفت الى الطبيب قائلا : بخصوص المسألة :

طمأنه الدكتور محسن انه سينظر في حكاية الدواءالذي يطلبه .

مضى امين بمعاونة زوجته خارجا من الباب الايمن . ثـم عادت حميدة بعد برهة وجيزة الى الصالة مغلقة بابها من خلفها باحتراس . اصبحت حميدة امراة اخرى تماما . بدا عليها كما لو كان عدم وجـود زوجها قد اضاف الى عمرها عشرين سنة اخرى . اختفت مـن وجهها معالم تلك البهجة التي كانت تضعها على فسماتها ، وبان عليها بجلاء ان الشقاء قد هدها واغرق روحها . مضت تضغط منديلا بيـن اصابعها بعصبية .

استفسرت من الطبيب عن حالة زوجها .

نكس رأسه ولم يجب . لا شك ان زوجها كـان يطلب منـه أن يتحرى له عن ابنهما لانه لم يصله منه خطابات من زمن طويل ..

اطرقت الام وقالت : انمـا يا دكتور .. مافيش فايدة ..

اطبق عليهما الصمت . ومضت تحدق امامهـا بنظرات ساهمة مهمومة .

ـ لا يا دكتور .. مافيش فايدة .. امين فاكـر ان ابننا سافر يشتغل وانه راجع لنا .. موش حانشوفه تاني .. ابدا .

هم الدكتور بالافتراب منها في حركة مواسية لا ارادية . ثم توقف .

اردفت تقول : ايوه ، يا دكتور .. ابننا الوحيد انقتـل برصاص الانجليز .. في القنال .. كان مع الفدائيين .

تكلمت حميدة .. كما لو كان الكلام راحة وعزاء لها .. منذ اسبوع .. امام باب العمارة .. قابلني شاب اسمر صارم الوجه يحمل لفافة .. كان صاعدا الينا .. استوقفني .. وحكى لي كل شيء .. عند الفجـر هجمنا على المعسكر .. في الوقت الذي كان فيه الانجليز يحاولون ايهام العالم انهم قضوا على نشاط الفدائيين .. وعلى مطلبنا فـي الاستقلال .. شحنة المتفجرات نسفت المنشئات .. ثم اقتحمنا المعسكر بالبنادق الرشاشة .. واشعلنا النار في مستودعاته .. وعندما انسحبنا حملنـا صابر مصابا في صدره برصاصة .. كان الدم ينزف منه .. طلب منـي ان اوصل اليكم هذا الخطاب الذي كان قد كتبه في اليوم السابق .. ناولها مظروفا .. وهذه ايضا لك .. ساعة يده التي كان قد اهداها له ابوه سنة نجاحه في البكالوريا .. وحافظة جلدية للجيب .. فتحتهـا كان بداخلها صورة مجدي وهو طفل رضيع .. وستين قرشـا طلب ان تشتري ماما حميدة بها بعض الحلوى .. لابنه .

تأوّلت حميدة الدكتور محسن الخطاب : امـــاه ، غـــدا سادخل امتحانا .. سأثبت ذاتي .. تأكدي لا اريد ان اموت ، لكننـي لا اعرف كيف اعيش بطريقة اخرى .. الحياة بغير ذلك ضحلة وخاوية من كـل معنى .. العدو يجب ان يحارب مهما كانت النتيجة .. انني بعملي اخلق البناء الوحيد المعقول للعالم الذي نحيا فيه .. افرحي ، يـــا اماه ، لا تجعلي الحزن يملكك .. واذكريني بالخير عند ابني .. قولي لابي ان يقرأ له كل ليلة الكتب التي كان يقرأها لي ..

قال لها الزميل : قابل الموت ثابت العينين ، مزمـــوم الشفتين ، واقفا على قدميه ..

بكت الام وبكت . ثم سألت : هل تألم ابني كثيرا ؟

أجاب الزميل : كان ينزف ويصيح ، يا سيدتي .. لكـن الشجاع ليس من لا يصرخ عند الموت ..

كثيرا ما يكون الصمت ابلغ من كل الكلمات الجوفاء التي يمكن ان تقال .

نزل الدكتور محسن الدرجات بخطوات ثقيلة . ومع ذلك يجب ان نضع في الاعتبار اننا نتقدم .. لا يكفي الشعور بذلك ، ولا التفكيـــر فيه ، ولا الحركة ذاتها ، ولا تعريض الجسم للخطر في المعركة القديمة .. كانت الدرجات متآكلة ، وبياض الحائط بجوار السلـم متسافطا ، والتراب يخيم على كل شيء .. لكن العمارة في ذاتها كانت وطيـــدة البنيان متينة الاساس .. خمسة ادوار عالية الاسقف .. ومع ذلك يجب ان نضع في الحسبان الى اين تقدمنا باعتبار ان هذه ارادة الالم الذي فينا .. هذه البناية اقوى من كثير من العمارات الجديدة فـي الاحياء العصرية .

كان باب الشقة اليمنى بالدور الرابع مفتوحا . وفد منها صوت الراديو .. كامواج تتكسر على رمال شط دافيء .. نغمـــة ناي حزين تختلط بصوت صعيدي نواح .. « قالوا الصبر يا عين جعلوه للابطال .. ما يكون دوايا عند حبيبي كان ينطال .. الا دوايا حدا خصمي ، ولم عاد ينطال ... » ايقاع شجي .. وصوت ممطوط .. يبتعد .. والدكتور محسن ينزل الدرجات ..

عند عتبة الدور الثالث رأى فتاتين عصريتين .. رفعت ذات الصدر الكشوف شعرها بيديها وراء رقبتها ، وقالت للاخرى :

ـ عاوزه اعمله زي صباح .

ـ والكحل ده ..

ـ ممدوح بيعجبه ..

ـ بتحبيـــه ..

ـ دمه خفيف بالبدلة .. وهو عاوج الطربوش على جنب .

ـ افرضي .. ما رجعش ..

ـ ابن خالي أولى بي !

طاردت ضحكاتهما الدكتور محسن بلا هوادة واختلطت بكلمـــات الاغنية التي ظلت تنزل معه السلم ، كتموجات في بحيرة القى في لجتها حصاة « .. منين اجيب صبر يغنيني على بعدك ... » نظر الى اعلـى .. منور السلم فسيح .. قبته الزجاجية القديمة مهشمة فـي جانب ومشروخة في الجانب الآخر .. معتمة من فرط ما لصق بها مـن تراب تحول الى طين بسبب ماء المطر .. طين حفرت فيـــه خيوط ثعبانيـــة منحدرة .

عند الطابق الثاني التقى بمجدي يصعد الدرجات وهو يعرج . كان يمسك الدرابزين الخشبي المتداعي بيده اليسرى ويضغط بيده الاخرى على ركبته اليمنى . ارتسم الالم على قسماته الصبيانية وتهدلت خصلة من شعره الاسود على جبينه الاسمر المقطب .

توقف الدكتور محسن عـــن النزول . التقت عينـــاه بالعينين الواسعتين السوداوين مثل زيتونتين . انحنى ووضع يـــده على كتف الصغير ونظر الى ركبته مستفسرا .

ـ كنت اجري .. وقعت ..

رفع يده من على ركبته . كانت مجروحة . اخرج الدكتور محسن من حقيبته قطعـة من القطن بللها . سأل مجدي :

ـ الابطال بيتعوروا ، يا دكتور ؟

ابتسم الطبيب :

ـ وبيموتوا كمان ..

اصطبغت ركبة الصغير بلون أحمر .

ـ ... بكره تعرف حاجات كتير .. لما تكبر .

مسح خيوط الدم المتجمدة على ركبة الصغير .. ثم اخرج شاشا ابيض . اوما الى البندقية الخشبية التي وضعها مجدي تحت ابطه :

ـ مثلا .. حانعرف ازاي تستعمل دي ..

اجابه مجدي بثقة :

ـ اعرف استعملها من دلوقت ..

نظر اليه الطبيب برهة ثم قال :

ـ لكن ، حانعرف كمان لصدر مين نصوبها .

انتهى من ربط اللفافة . نهض . وضع يده على كتفه .

ـ فداك .. حاجات كتير لازم نعرفها .

اغلق الدكتور محسن حقيبته .. واشار الى اعلى .. الى الطابق الخامس .. وقال لمجدي وهو ينزل :

ـ خلي بالك عليهم .. انت أملهم .

لم يكن الدكتور متأكدا ان الصغير سيفهم كلمة « الامل » ولكـــن كان لا بد ان يقولها له ثم قدر الطبيب ان يكون اكثر تحديدا في كلامه : قل لجدك مافيش داعي للدوا المنوم .

وكدوي مختنق ، يبقى من ضربة قوس على كمان مضت الاغنيـــة تقول : « ياللي كواك الزمان اصبر على وعدك » .

ونزل الدكتور محسن .. ازدادت درجات السلم تآكلا .. وعلتها الاوساخ فبدت كأنها قد صنعت من الطين الجاف . الدرابزين الخشبي نخره السوس في كثير من مواضعه .. لمست يد الطبيب الممسكة بـه الحديد الذي تحته . سرت برودته الى عظامه .

مضى الدكتور محسن يتحسس طريقه علـــى الدرجات ، ويسائل نفسه في كل خطوة هل يستطيع المرء ان يسافر ليل نهار في عيني جنية بحار ؟ ونحت الجفون الف سارية تنقب ـ وقد انتابها الدوار ـ ارجاء السماء .. ونحت في بئر السلم ، حيث لم يكن ينتظر الطبيب ان يكون مكانا لآدميين ، لحظ في العتمة تحت بطانية رثة في لون الارض سيقانا ورؤوسا عديدة شاحبة .. هزيلة .. اولادا نائمين .. كعش من اعشاش العصافير .. الى جوار لمبة غاز منطفئة ، وحولهـــا صرصاران اسودان يدوران على غير هدى .

عند باب العمارة ، جلس البواب على دكته الخشبية يغمس فـي طبق فول بالبيض . دس لقمة العيش البلدي في فمه ، وقـــال وهـــو يمضغ : كلي ، يا آمنة .. اللي ياكل على ضرسه ينفـع نفسه .. كانت آمنة امرأته تجلس الى جواره .. خلخال فـي ساقيها .. الطين لاصق بكعبيها .. كفاها مخضبتان بالحناء .. واظافر قدميها ايضا .. حلـق ذهبي هلالي الشكل يلمع كلما ازاحت طرحتها لتهرش شعرها .. اردف بوذا البدين يقول ، وقد اشار ، بلقمته قبل ان يدسها في فمه ، الـى حفنة الاولاد النيام : اللي يجيبهم يوكلهم !

خرج الدكتور محسن من باب العمارة .. اصطدم بجـــو الشارع .. وصخبه .. امتلأ الرصيف بصبية ثيابهم رثة .. اكثرهم حفـاة .. كانوا يصرخون . امسك ولد نحيف في قدميه صندل قديم غصنا يابسا .. ولوح به ، كما لو كان يمسك سيفا. هجم عليه صبي شاحب بقميص لم يقربه الماء والصابون منذ ان لبسه ، وخطف السيف ، فانكسر فـي يده .. قذفه آخر يختفي وراء حائط مهدم بنواة بلح .. مضى الطبيب يشق طريقه قدما تلاحقه الصرخات اللاهية .. ابريـــاء متوحشون .. يخوضون المعارك .. تتكسر سيوفهم .. ويهللون منتصرين .

القاهـرة

نعيـم عطيـة